دعوة إلى التراث الشعبي - الحلقة الثالثة : مميزات المادة الفلكلورية

مجلة التراث والمجتمع العدد 44 - سلسلة دعوة إلى التراث الشعبي - د. شريف كناعنة - 2007/02/20م - 11:30 ص

تطرقنا في الحلقتين السابقتين (العددان 42، 43) إلى الظروف التاريخية التي سببت "الفوضى الفولكلورية" عند الفلسطينيين خصوصاً في الربع الرابع من القرن العشرين، وتوصلّنا إلى أن الفوضى جاءت من سوء فهم بعض المبادئ النظرية لحقل الفلكلور وخصوصاً عدم التمييز بين ما هو "رسمي" وما هو "شعبي" من جهة، وما هو "تراثي" أو "غير تراثي" من جهة أخرى، وتوصلنا إلى أن الفلكلور يضم ما هو "تراثي" و"شعبي" في نفس الوقت وبذلك أصبح مصطلح "تراث شعبي" أكثر مصطلح عربي مستعمل كمقابل لمصطلح "فلكلور" الغربي والذي كاد يصبح مصطلحاً عالميّاً.

كان الحديث في الحلقة السابقة نظرياً بحتاً وننتقل في هذه الحلقة إلى المستوى العملي التطبيقي. لهذا الغرض نقول أن المواد الفلكلورية تتوفّر فيها مجموعة من المواصفات ولا تتوفّر في المواد غير الفلكلورية. ولا نعني هنا أن هناك صفة واحدة إذا توفّرت في مادة ما جعلتها بالضرورة فلكلوريّة أو أن هناك صفة ما إذا غابت من مادة ما منعت حتماً كونها فلكلورية، وإنما يعني أن هناك صفات يجمع عدد كبير منها عادة في المادة الفلكلورية وكلما زاد عدد مثل تلك الصفات المجتمعية في مادة ما كلما أصبحنا ميّالين أكثر فأكثر إلى تصنيف تلك المادة كمادة فلكلورية، وعكس ذلك صحيح.

ونذكر هنا عدداً من تلك الصفات:

1. **العمومية:** أي أن المادة الفلكلورية كي تعتبر جزءاً من فلكلور مجتمع ما يجب أن تكون معروفة وممارسة من قبل عدد كبير من أفراد ذلك المجتمع وأن تكون منتشرة في جميع أجزاء ذلك المجتمع سواء كان التقسيم جغرافياً أو طبقياً أو عائلياً أو غير ذلك من التقسيمات داخل المجتمع، وإذا عرفت لدى فئة واحدة من المجتمع فهي من فلكلور تلك الفئة وليس المجتمع ككل، فالفلكلور الموجود بين الفلسطينيين فقط ولا يوجد في البلدان العربية الأخرى هو فلكلور فلسطيني وليس عربي.

2. **الخصوصية:** لكي تعتبر المادة الفلكلورية جزءاً من فلكلور مجتمع ما. يجب أن تكون خاصة بذلك المجتمع أي أن تميّزه عن غيره من المجتمعات، فإذا وجدت نفس الأغاني مثلاً مثل العتابا في جميع الدول العربية بما فيها فلسطين فهي ليست من الفلكلور الفلسطيني بل العربي.

3. **التقليدية:** المادة الفلكلورية تكون تقليدية في المجتمع الموجودة فيه، أي تكون موروثة عبر الأجيال، ويشترط البعض انتقالها عبر جيلين على الأقل، أي من الآباء إلى الأبناء، وتزداد إمكانية تصنيف مادة ما ضمن الفلكلور بازدياد عمق الأجيال التي توارثتها.

4. **القدم:** بغض النظر عن عدد الأجيال فإن من صفات الفلكلور القدم، ولا يوجد عمر محدد لمادة الفلكلور ولكن قدم المادة يزيد من قبولها ضمن فلكلور المجتمع. وتتفاعل صفة القدم طبعاً مع صفات أخرى مثل التقليد وسعة الانتشار.

5. **الحياة:** بغض النظر عن عمر مادة أو عمق الأجيال التي مرّت عبرها تلك المادة لا تكون جزءاً من فلكلور المجتمع إلا إذا كانت حيّة، أي أن أفراد المجتمع يعرفونها ويمارسونها. فإذا اكتشفنا مثلاً في مخطوط قديم نصّاً لأغنية كانت دارجة في فلسطين قبل مائتي سنة ولكن لا أحد يعرفها أو يستعملها اليوم فهذه الأغنية ليست من الفلكلور الفلسطيني الحال، هذا طبعاً لا يمنع من إعادة التعريف بها واستعمالها من جديد فإذا لاقت قبولاً وأصبح لها انتشار واسع بين أفراد المجتمع الحالي، عندها فقط تعود فتصبح جزءاً من التراث الشعبي الفلسطيني المعاصر.

6. **الانتقال الشفوي:** قلنا أن الفلكلور ينتقل من جيل إلى جيل، ويكون هذا الانتقال اجتماعياً أي بالتعلُّم والتعليم وليس انتقالاً بيولوجياً بالجينات. ومع أن الانتقال الاجتماعي أي التعلّم يمكن أن يحدث بعدة طرق منها المشاركة والملاحظة والتقليد والقراءة إلا أن معظم التراث الشعبي ينتقل "مشافهة" أي عن طريق الكلام المنطوق وهناك من يشترطون الانتقال الشفوي كمعيار ضروري في تعريف الفلكلور.

7. **الانتقال العفوي:** سواء كان نقل الفلكلور يأتي عن طريق المشافهة أو عن طريق المعاينة والملاحظة والتقليد فإن هذا الانتقال عادة يأتي عفويّاً عن طريق الممارسات اليومية للفلكلور وليس عن طريق التعليم الرسمي أو التدريس المقصود من قبل مؤسسات المجتمع الرسمية. فإذا دُوّن الفلكلور كتابة ودخل ضمن المناهج التعليمية فإنه يصبح جزءاً من التراث الرسمي وليس الشعبي. فالشعر الجاهلي كان في حينه تراثاً شعبيّاً بتناقله الناس مشافهة أما الآن فنعرف ذلك الشعر من الكتب والمناهج المدرسية فقط وبذلك يكون قد تحول من تراث شعبي إلى تراث رسمي.

8. **المحتوى العاطفي – الفنّي:** يتكون التراث الشعبي بشكل عام من تعبير "فنّي" عن "عواطف" عامّة أبناء المجتمع يصاغ بشكل سلوك شفوي أو حَرَكيّ أما ما هو إخباري عادي وما صيغ بقالب غير فنّي أو جمالي فإن الناس لا يهتمون به ولا يتناقلونه لفترات طويلة بل يختفي ويزول بسرعة. ويجدر بنا هنا أن ننتبه إلى أنّه ليس صحيحاً، كما يعتقد البعض، أن كل صيغ

بالعاميّة فهو من الفلكلور. فإذا قال أحدنا: "أنا رايح عَ السوق اشتري أغراض" فإننا لا نتوقّع أن تدخل هذه الجملة تراثنا الشعبي لأنها قبلت بالعاميّة.

9. **فن "قولي"**: قلنا أن الفلكلور عبارة عن عواطف صيغت في قالب فنّي شعبي. هذا القالب يمكن أن يكون بشكل فن حَرَكي مثل الرقص أو الدبكة ويمكن أن يكون مادّي مثل التطريز على الملابس كما أن يكون من قولي الحكايات والأغاني الشعبية. الكثيرون من علماء الفلكلور يصرّون على أن تصاغ العواطف في قالب "قولي" أو "لغوي" كي تصبح تراثاً شعبيّاً وهذا طبعاً يتناسب مع الإصرار على أن يكون أسلوب نقل التراث الشعبي من فرد إلى فرد ومن جيل إلى جيل شفويّاً.

10. **المؤلف مجهول:** هنالك اتفاق عام بأن مادة الفلكلور ليس لها مؤلف أو مؤسس معروف ترتبط المادة باسمه ويكون له فيها حقوق المؤلف أو المبدع بل هي ملك للجماعة وروتها من الأجيال السابقة دون معرفة مصدرها الأصلي. وهذا يعني أن الفلكلور هو تعبير عفوي عن الضمير الجمعي والشخصية الجماعية لذلك المجتمع، ينمو ويتطور ويتغيّر وينشأ ويموت حسب التغيرات والتبدلات التي تطرأ على ذلك الضمير الجماعي وليس استجابة لرغبات الأفراد أو قراراتهم. فنحن لا نعرف مثلاً من أوجد عرقاً من عروق التطريز الفلسطيني، ولا نعرف من كان أول من قال: "على دلعونا، على دلعونا..."

أما قصائد نمر العدوان مثلاً فمع أنها صيغت باللهجة العاميّة البدوية فإنها ليست اليوم من التراث الشعبي بل يملكها نمر العدوان أو ورثته وينشرونها في "ديوان نمر العدوان".

هذه عشر من أهم المواصفات المستعملة في التعرّف على المادّة الفلكلورية، لا تكفي أي واحدة منها في إثبات أو نفي "فلكلورية" مادة ما، ولكن توفّر جميع هذه الصفات أو معظمها في مادة ما يؤكد كونها جزء من التراث الشعبي.

في الحلقة القادمة – إن شاء الله – سنتحدث عن طرق تبويب التراث الشعبي ككل ثم نتحدث عن التراث الشعبي المادي بشيء من التفصيل.